العجائبية في أخبار التنوخي

The Fantastic of Al-Tanukhi Narrations

د. أحمد عبد الكريم الملقي
Dr. Ahmad A. Almulqi
جامعة العلوم الإسلامية العالمية
almulqi@hotmail.com

الملخص

محورُ هذا البحثِ هو العجائبيَّة في أخبارِ التَّنوخي (٣٢٧هـ - ٣٨٤هـ) مستخلصةً مِن الأخبارِ التي جَمعَها. وقد درسَ الباحثُ العجائبيَّة في أخبارِ التَّنوخي من خلال ارتباطِها بالموروثِ الدّيني والثقافي والمعتقد الصّوفيّ والأحلام. إذ استقرأ أدب التنوخي واختار أخباراً قام بتحليلها لتحقيق غرضه المتمثِّل في تَجلِيةِ الجانبِ العجائبي في أدبه. وتوصَّل هذا البحثُ إلى نتيجةٍ مؤدّاها أنَّ العجائبيَّة لدى التَّنوخيِّ جاءتْ لكَسرِ قواعدِ الأسلوبِ المُتعارَفِ عليهِ في إعطاءِ دروسِ الوعظِ الدينيّ والحثِّ على مكارِمِ الأخْلاقِ، وأسلوبٍ افعَل ولا تفعَل الذي كانَ سائداً في ذلكَ العَصرِ، فتراهُ يقدّمُ للقارِئِ أخبارًا ماتعةً يَستحضرُ فِيها قلبَه للعِظَةِ، وذهنَهُ لتحليلِ الخبرِ الذي يَسمَعُه فيصدِّقهُ أو يُكذبُه، ويبتَكِرُ لأجلِ هذا طريقةً عجائبيّة بعيدةً تَماماً عَن القوالبِ الجامدةِ التي اعتَادَ المتلقّي عليها في الحَكايا والكُتبِ السّابقةِ، وهو في هذه الأخبارِ يَقترب كثيرًا من فنِّ القِصَّة القصيرةِ بمفهومِها الحَديث.

الكلمات المفتاحية: العجائبية، التنوخيّ، نشوار المحاضرة، الفرج بعد الشّدّة، المستجاد من فعلات الأجواد.

تاريخ الاستلام: ٢٠١٨/١١/١٤ **تاريخ القبول: ٢٠١٩/١/١٥**

Abstract

This research aimed at investigating the fantastic of Al-Tanukhi narrations (327-384 AH) which were collected from the narrations that have been gathered. The researcher investigated the fantastic of Al-Tanukhi narrations and their relationship to religious and cultural heritage, the Sufism as well as dreams. The current study examined Al-Tanukhi literature and some narrations that have been selected and analyzed to achieve the goal of the study. It was concluded that the fantastic of Al-Tanukhi has appeared to break the rules of the conventional methods of delivering religious preaching and inducing high morals as well as avoiding the style of dos and don'ts that was prevalent in that era. Thus, it was noticed that Al-Tanukhi provides the reader with amusing narratives in which he evokes the reader's heart for preaching. It also allows his/her mind to analyze the narrations he/she hears, thereby verifies or falsifies them. Therefore, Al-Tanukhi used the fantastic away from the rigid stereotypes that the recipient has been accustomed to in old narratives and books. In his narrations, Al-Tanukhi is much closer to the art of the story with its modern content.

Keywords: The Fantastic, Al-Tanukhi, Nushwar Al-Muhadara, Al-Faraj Ba'ad Al-Shdda, Al-Mustajad Min Fa'elat Al-Ajwad.

المقدمة

يمكنُ القَولُ إنَّ معرفة الإنسان العربي بالخيالِ العَجائبيِّ جاءتْ من خِلالِ قِصصِ الأَطفالِ المَشهورَةِ التي اعتادتْ الجدّاتُ روايتَها في كلِّ ليلةٍ، أمّا الأدبُ العَجائبيُّ الذي يَعتمِدُ السِّحرَ فقدْ عرفَه العربُ مِن خِلالِ قِصَصِ ألفِ ليلةٍ وليلةٍ، ومِن خِلالِ ذلكَ التَّفاعلِ بينَ الإنسانِ والجَانّ والعَفاريتِ والمَرَدةِ في رِسالةِ التَّوابعِ والزَّوابعِ لابنِ شهيدٍ الأَشجعيِّ الأندلُسيِّ، أَبو عامرٍ أحمدُ بنُ عبدِ الملك (ت: ٤٢٦هـ)، ومن كتابِ الحَيوانِ للجاحظِ، أَبو عُثمانَ عَمْرو بن بَحرِ بنِ مَحبوبٍ الكِنانيّ بالولاءِ اللَّيثي (ت: ٢٥٥هـ)، إذْ يتحدَّثُ فيهِ عن الجِنِّ ومَطاياهُم مِنَ الحَيوان. ومن ترجمةِ ابنِ المقفّعِ لكتابِ بيدَبا الفيلسوفِ المَشهورِ بكليلةَ ودِمنَة الناطقِ بلسانِ الحيوان، وغيرِها من كُتبِ الأَدَبِ العجائبيِّ في التراثِ الأدبي العربيِّ القَديم.

وقد بدأتْ قصةُ هذا العملِ حينَ همَّ الباحثُ بقراءَةِ أدبِ التَّنوخي. إذْ دُهشَ لما رأى في أخباره _التي يُفترضُ أنْ تَنقل وقائع حدثتْ بالفِعل_ ما يُشبهُ الخَيال. فالتنوخيّ عاشَ في القرنِ الرّابع الهِجري، وهو ليس بكاتبِ قصَّةٍ قصيرةٍ أو روايةٍ كالكُتّاب المعروفين بهذا اللون، وهو يشيرُ في مقدمةِ كتابهِ (نشوارُ المُحاضرةِ وأخبارُ المُذاكرةِ) إلى أنّه أقدَمَ على الكِتابةِ في هذا الجِنسِ الأدبيّ خشيةً من اندثارِه وضياعِه إذ يقول: "لمّا تطاولتْ السُّنون، وماتَ أكثرُ أولئكَ المَشيخةِ الّذينَ كانوا مادّةَ هذا الفَنِّ، ولم يبقَ مِن نُظَرائِهم إلّا اليَسيرُ الذيْ إنْ ماتَ ولم يُحفظْ عنهُ ما يَحكيهِ، ماتَ بموتِهِ ما يَرويْهِ"[1]. ولقد أحسَّ بعد تأليفِ كتابه بالدَّهشةِ التي ستُصيبُ القارئَ الذي لم يَعتَدْ هذا الجِنسَ من الأَخبارِ، إذ يقولُ في توطِئَتِه للكتاب: "... حتّى إنّ من بقيَ من هؤلاء الشيوخِ إذا ذَكرَ ما يحفظُهُ من هذا الجِنْسِ بِحضرَةِ أربابِ الدّولةِ، ورؤساءِ الوقتِ، خاصّةً ما كانَ منهُ متعلّقاً بالكرمِ، دالّا على حُسنِ الشِّيَمِ، متضمناً فورَ ذكرِ النِّعمِ، ... كذّبوا به ودَفعوهُ، وحَصَّلوهُ في أَقسامِ البَاطلِ واستَبعَدُوه، ضعفاً عن إتيانِ مثلِهِ، واستعظاماً

منهم لصغيرِ ما وصلوا إليه" [٢]

مِن هُنا يتَّضِحُ أنَّ التَّنوخيّ يُقرُّ باستحداثِ هذا الجِنسِ الأدبيّ الذي يَظنُّ أنَّه سابقٌ فيه، وليس الباحث هنا في صَدَدِ الحَديثِ عنْ صِحّة ذلك، بيدَ أنَّ ألفاظَ التَّنوخيّ يُمكنُ أنْ تكونَ البِدايةَ الّتي يُنطلَقُ مِنها بُغيَةَ تَجلِيَةِ تلكَ العَجائبيَّةِ في أَدبِه.

وقد سعى هذا البحثُ إلى اكتِشاف آلياتِ العَوالم العجائبيَّة في مصنَّفات التَّنوخي، وتجلِيَة تلكَ الأَفكارِ العجائبيَّة الّتي تُميِّزُ كثيراً من أَخباره، ففي هذه الأخبارِ شيءٌ يثيرُ الدَّهشةَ ويُشعركَ بأنّك تَقرأُ قصّةً قَصيرةً أو رِوايةً.

وقد عاد الباحثُ إلى بعضِ الدّراسات السّابقةِ التي تطرَّقتْ للحديثِ عن التَّنوخي وأدبِه ومنها:

١. دراسةُ مي أحمد يوسف المعنونة "نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخيّ"[٣] إذ تطرَّقتْ الباحثةُ للحديثِ عن تصنيفِ الكِتابِ ككتابٍ تاريخيٍّ، وبيَّنت إبداعيّة الخُروج عندَ التنوخيّ إلى الحِكائيَّة الفنيّة، كما تطرَّقت للحديثِ عن الحِكاية الخُرافيَّة في أدبِه دونَ استفاضةٍ أو بيانِ مغزى تلكَ الخُرافة أو تَحليلِها.

٢. دراسةُ خولة خليل حسن شخاترة المُعنونة "الخبر عند المحسن التنوخيّ بين القصّ والتاريخ"[٤]. وهذه الدِّراسةُ تختصُّ بتاريخِ القصّ في محاولةٍ للتَّفريق بين القصِّ الأدبيّ والقصِّ التاريخيّ، وقد اختارتْ الباحثةُ أدبَ التّنوخيِّ أُنموذجاً لدراسةِ الخبرِ تاريخيًا وأدبيًا.

٣. دراسةُ محمد محمود حرب المعنونة "السّرد في أدب القاضي التنوخي"[٥] وقد تطرَّق الباحثُ في دِراستِه إلى الحديثِ عن سرديّاتِ التَّنوخيِّ في مؤلفاتِه من حيثُ كونِها وحدةً سرديَّةً كاملةً، ثم تناولَ الظَّواهرَ الأسلوبيَّةَ في إنتاجِه الأدبيّ. دونَ التَّطرقِ في أيٍّ من مَحاور بحثِه للحديثِ عن العَجائبيةِ في أدبِ التّنوخيِّ أو الإشارةِ إليه.

وقبلَ الوُقوف على تلكَ الأخبارِ العجائبيَّة، ارتأى الباحثُ أنْ يُعرِّفَ بالتَّنوخيّ، وأنْ يُلقي الضَّوءَ على مَفهومِ العجائبيَّة.

والله الموفق أولاً وأخيرًا.

التنوخي في سطور

أبو عليٍّ المُحسنُ بنُ أبي القَاسِمِ عليٍّ بنِ مُحمَّدٍ بنِ أبي الفَهْمِ التَّنوخيّ[٦]، وُلد في البصرة، ليلةَ الأحدِ لأربعٍ بَقينَ مِن شهرِ رَبيعِ الأوّل سنةَ سبعٍ وعِشرينَ وثَلاثمِئَة، ونشأَ بِها إذْ كانَ أبوهُ قاضياً فيها[٧]. وقد كانَ حنفيًّا على مَذهبِ والِدِه، ثمَّ انتقلَ إلى الاعتِقادِ بِمذهبِ المُعتزلة[٨]، مُتأثرًا بوالِده أيضًا. وقد نشأَ التَّنوخيّ وتَرعرعَ في أُسرةٍ عربيّةٍ عُرفتْ بالعِلمِ والأدَبِ والتَّأليفِ[٩]، فوالدُهُ أبو القاسم التنوخيّ أديبٌ وكاتبٌ وفقيهٌ ولغويّ كبيرٌ ومَعروف.

ويشيرُ غيرُ واحدٍ منَ العُلماءِ إلى مَكانة أبي علي

التنوخي ووالدِه العِلميّة، ومنْ ذلكَ وصفُ الثّعالِبيّ لهُ في يتيمَتِه، إذْ قالَ: "هلالُ ذلكَ القَمَر، وغُصنُ هاتيكَ الشَّجر، الشّاهدُ العادلُ لمَجدِ أَبيهِ وفَضلِه، والفَرعُ المَثيلُ لأصلِه، والنّائبُ عنهُ في حياتِه، والقائمُ عنهُ بعدَ وَفاتِه"[١٠].

وكان التَّنوخيُّ كما يَحكي ابنُ خلِّكان في وفياتِ الأَعيان "أديباً، وشاعراً، وإخبارياً،... ، وأوّلُ ما تقلّدَ القضاءَ من قِبلِ أَبي السّائبِ عُتبةَ بنِ عُبيد اللهِ بالقصرِ وبابلَ وما والاهُما، في سنةِ تسعٍ وأربَعين، ثمّ ولّاهُ المُطيع للهِ القَضاءَ بعسكرِ مَكرِم، وإيدج، ورامهُرمُز، وتقلّد بعدَ ذلكَ أَعمالاً كَثيرةً في نواحٍ مُختلفةٍ".[١١]

وقد ترك التنوخي مؤلفات عدّة جلُّها في الأدب عُرِفَ منها، المتجادُ من فَعَلات الأجواد، والفرجُ بعدَ الشدَّةِ، ونشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة المطبوع بعنوان (جامع التواريخ).

وقد وافَتْه المنيَّة في بغدادَ ليلةِ الاثنين لخمسٍ بقينَ من مُحرَّم سنة أربعٍ وثمانين وثلاثمِئة عن عمرٍ ناهزَ السّابعة والخمسين عامًا.[١٢]

مفهوم العجائبية لغة واصطلاحا

لا بدَّ قبلَ الخَوضِ في الأَخبارِ العَجائبيَّةِ عندَ التَّنوخيِّ أنْ يُعرِّجَ البحثُ على هذا المَفهومِ الأدبيِّ، وبعضِ تفاصيلِه التي سيستبينُ القارئُ من خِلالِها الحُجّةَ التي أقام عليها الباحثُ نَسْبَ أسلوبِه الحِكائيِّ في أخبارِه التي تَعودُ إلى عصرِ الدّولةِ العبّاسيَّة لهذا المُصطَلحِ الأدبيِّ الحَديث.

فالعجائبيَّةُ لغةً:

من العُجْبُ والعَجَبُ: "إنكارُ ما يَرِدُ عليك لِقِلَّةِ اعْتِيادِه"[١٣]، وهو كما يقول القزويني: "ميزةٌ تَعرضُ للإنسان لقصورِه عن مَعرفتِه سببَ الشيْءِ أو عن مَعرفتِه كيفيَّة تأثيرِه فيه."[١٤]

وقد ورد الفِعل عَجبَ في القرآن الكريم ليصور الدَّهشة التي أصابتْ الكُفّار لما سَمِعوا ببَعثِهم بعد مَوتِهم، قال عزَّ مِن قائِل: "وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ" (سورة الرعد، الآية: ٥).

أمّا اصطِلاحاً فالعجائبيةُ: "شكلٌ من أَشكالِ القصِّ، تَعترِضُ فيهِ الشَّخصياتُ بقوانينَ جديدةٍ تُعارضُ قوانينَ الواقعِ التَّجريبيّ، وتُقرُّ الشَّخصياتُ في هذا النَّوع العجائبيِّ ببقاءِ قوانينِ الواقعِ كما هي".[١٥] ويَرى الفيلسوف البلغاري (تزفيتان تُودوروف) وهو صاحبُ السَّبقِ في التّأصيلِ للمَفهوم من خلالِ كتابِه الشَّهير (مدخلٌ إلى الأدبِ العجائبيّ)، أنَّ الأدبَ العَجائبيَّ هو "التَّردُّدُ الذي يُحسُّ بهِ كائنٌ لا يَعرفُ غيرَ قَوانينِ الطَّبيعةِ فيما يُواجهُ حَدثًا غيرَ طبيعيٍّ حسبَ الظّاهر."[١٦] فالخبرُ العجائبيُّ عندَه هو ذلك الخبرُ الذي يُشكِّكُ القارئُ في صِحَّتِه عن العالَم ولكنَّه في الوقتِ نفسِهِ يظلُّ غيرَ قادرٍ على تَفسيرِه. وعلى هذا فالعجائبيُّ يتحدَّدُ بالنسبةِ إلى مفاهيمَ أُخرى هي: الواقعُ والمُتخيَّلُ والوَهم، وهوَ ليسَ سوى ذلكَ السّرِّ أو الشَّيءِ الغريبِ الخفيِّ الذي يَقتحمُ الحَياةَ الواقعيَّة

ويثيرُ في نَفسِ المُتلقّي الرُّعبَ أو الشّكَّ أو التَّردُّد.

ولا بُدَّ من الإشارةِ هُنا إلى أنَّ تَعريفَ الأدبِ العجائبيِّ لا يزالُ ناقصًا غيرَ مُكتملٍ، ولا تزالُ حُدوده غيرَ مَعروفةٍ، فهو مُتداخل مع أجناسٍ أدبيّةٍ أُخرى أَكثرَ وضوحاً مثلِ {العجيب} و{الغريب}. إذ يظلُّ العَجائبيُّ مُنفلِتًا دومًا، وهذا ما يوضحه تودوروف في كتابه إذ يقول: "مهما يكُنِ الأمر، لا يُمكنُ إقصاءُ العجيبِ والغريبِ عن تفحُّصِ العجائبيِّ، فهما الجِنسان اللّذانِ يتراكبُ معهما،... ولنلحظ أنّ جِنساً فَرعياً عابراً ينبجِسُ من كِلا الحالَتين بينَ العجائبيِّ والغريبِ من جهةٍ وبينَ العجائبيِّ والعجيبِ من جهةٍ أُخرى"[١٧]

وتَبدو محاولةُ إيجادِ تعريفٍ واحدٍ جامعٍ مانعٍ للأدبِ العَجائبيِّ أمرًا مُشكِلا، لأنَّ تودوروف نفسَه، يبقى متردِّدًا في تجنيسهِ بشكلٍ قطعيٍّ، إذ يُشركُ القارئَ في تحديدِه ويشترِطُ في تلقّيهِ وتعيينِه التردُّد والرِّيبة كحالتينِ تَلتبِسان على المُتلقّي فتُجبرانِه على اعتبارِ العالمِ الذي يَحارُ في إدراكِه عالمًا حقيقيًا إلا أنَّه غيرُ قابلٍ للفَهْم. وتُؤكِّد سناء الشعلان في مَعرِض حَديثِها عن العجائبيَّةِ أنَّ هذا "الخَيالَ المُجنَّحَ الذي يُدخلُنا في عوالمَ غيرِ طبيعيَّةٍ يستفيدُ من خيالاتِ العَمى والجُنونِ والشَّيخوخةِ."[١٨] وهيَ ترى أنَّ الغرائبيَّ والعَجائبيَّ يَخترعانِ واقعًا يمتازُ بظِلالٍ سحريّةٍ خياليّةٍ.[١٩] وقد فرّقت سناء الشَّعلان بين العجائبيِّ والغَرائبي وانتهتْ إلى أنَّ الغرائبيَّ والعجائبيَّ ينطلِقان أساسًا من التردُّد الذي يصيبُ القارئَ حينَ يودُّ أنْ يصدِّق نصَّ حدثٍ ما، "فإذا قرَّر القارئُ أنَّ قوانينَ الطبيعةِ تظلُّ سليمةً وتَسمحُ بتفسيرِ الظَّواهر المَوصوفةِ فهو لا شكَّ قد دخلَ في السَّردِ الغَرائبيِّ الغَريبِ، أمّا إذا قرَّر أنَّه ينبغِي قبولُ قوانينَ جديدةٍ للطبيعةِ يُمكنُ فَهمُ الظَّواهرِ بواسطتِها فقدْ دخلَ في السَّرد العجائبيِّ العَجيب."[٢٠] فما يُمكنُ تَصديقُه يقعُ تحتَ الغَرائبيِّ، أمّا ما لا يُمكنُ تَصديقُه في أيِّ حالٍ منَ الأحوالِ فهوَ في دائرةِ العَجائبيِّ، ولم يفُتْها أنْ تذكرَ أنَّ هذا الفرقَ قدْ يتغيَّر مِنْ زمنٍ إلى آخر فما يُمكنُ أنْ يَكونَ عَجيباً في زمنٍ مَا قد لا يكونُ كذلكَ في زمنٍ آخرَ.[٢١]

العجائبيَّة في أخبارِ التَّنوخي

تنطلقُ أخبارُ التنوخي _التي وقعَ عليها الاختيارُ في هذا العملِ_ مما يُمكنُ القولُ إنَّه غيرُ مألوفٍ، وإنْ أَجازَ القارئُ زعمَ التنوخيِّ بأسبقيتِه إلى هذا الجنس الأدبي مع عِلمِه أنّ كلَّ فكرَةٍ وليدةٍ لا بدَّ لها من ملهِمٍ وقاعدةٍ أساسيةٍ تنطلِقُ مِنْها إلى فَضائِها الخاصِّ، فمن أين أتت للتنوخيِّ فكرَةُ العجائبيةِ والنصِّ الأدبي الخارِقِ لطبيعةِ السَّردِ المُتعارَفِ عليها آنَذاك؟

في الحقيقةِ إنَّ القارئَ المتمعِّنَ في نصوصِ التَّنوخيِّ وأخبارِه يراهُ بجلاءٍ متأثراً _في معظمِها_ بالأُصولِ الدّينيَّة التي حَفِظَها وتمثَّلها خيرَ تَمثُّلٍ. فالتَّنوخيُّ يَقتَفي أثرَ قَصَصِ القرآنِ الكريمِ والحديثِ النبويِّ الشريفِ في كثيرٍ مِن المَواطِنِ في أخبارِه كما سيظهرُ لاحقاً، وعليهِ فإنَّ

المُلهِمَ الأولَ لكلّ أخبارِ التنوخيِّ كانَ متمثِّلاً في مَرجِعيَّتِه الدّينيَّة التي تنقَّلَتْ بينَ الحنفيَّةِ ثمَّ المُعتزِلَةِ، واطلاعِه الواسعِ دينيّاً ومجتمعيّاً على معظمِ الثقافاتِ والأفكارِ وسلوكات النّاسِ كونُه كما وردَ سابقاً شغلَ منصِبَ القضاءِ خلالَ حياتِه.

ومن البدهيِّ في مَن يصلُ إلى القَضاءِ أنْ يكونَ رجُلاً واسِعَ المدارِكِ حادَّ الفطنةِ والذَّكاء، قادراً على استنباطِ الفريدِ من المألوفِ. ومن هذه القدرةِ ولدتْ العجائبيةُ وتجسَّدت جليَّةً في أخبارِه ونصوصِه.

ويرى صاحبُ هذا البحثِ أنّ التَّنوخيَّ استندَ في أخبارِهِ على أربعةِ محاورَ، ربطَ ما بينها وبينَ أسلوبِ العجائبيةِ بطريقةٍ فريدةٍ. وهذه المحاورُ الأربعةُ هي: العجائبيَّةُ والمَوروثُ الدّينيُّ، العجائبيَّةُ وارتباطُها بالحيواناتِ، العجائبيَّةُ والأدبُ الصّوفيُّ، العجائبيَّةُ والأَحلام.

* العجائبيَّةُ والموروثُ الدّيني

يتأثَّر التَّنوخيُّ كثيراً بالمَوروثِ الدّينيِّ، ويَظهرُ ذلكَ جليّاً في مُعظمِ أخبارِه، إذْ إنَّه يلجَأ إلى ذلكَ المَوروثِ كلَّما دعتْ الحَاجةُ. فقد لجأ في بعضِ الأحيان إلى عنونةِ قصصهِ باقتباساتٍ من القرآن الكريم نحو "ومن يتوكل على الله فهو حسبه" والسنة النبوية نحو "أصلح بين متخاصمين ..."،

ومنَ الأخبارِ التي تَظهرُ فيها المَسحةُ الدّينيَّةُ ذلكَ الخبرُ الذي يتحدَّثُ فيهِ عنْ جماعةٍ ركبتْ البَحرَ فسمعتْ هاتفاً يهتفُ بهم أنْ مَن يُعطيني عشرةَ آلافِ دينارٍ مقابلَ كلمةٍ تُنجيهِ إذا ما أَشرفَ على الهلاكِ، وأنَّ رجلاً رمى لهذا الهاتِفِ بالمالِ فسمعَ الهاتفَ يَقرأ قولَه تَعالى: "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا" (سُورَة الطَّلاق، الآية: ٢-٣). وقد استهزأَ بِهِ جميعُ مَن في المَركبِ لكنَّه كانَ على يقينٍ بأنَّ هذه الكلماتِ ستكونُ نافعةً لهُ يوماً ما. فَلَمَّا كانَ بعدَ أَيَّام، كُسرَ بهم المَركب، فَلمْ ينجُ منهمْ أحدٌ غيرُ ذلكَ الرجلِ، فإنَّه وقعَ على لوحٍ."[٢٢]

ومِن هُنا تبدأُ القِصّة، فقد رمى البَحرُ هذا الرَّجلَ على جزيرةٍ مَهجورةٍ وجدَ فيها قَصرًا عظيمًا دخلَه فإذ بامرأةٍ جميلةٍ أخبرتْه عن قِصّتها مع شيطان اختطفَها، وهو يتلاعبُ بِها. فما لبثَ إلّا وهذا الشَّيطانُ قد خرجَ من البَحرِ لينقضَّ عليهِ، فذكرَ الآيتينِ فأنجاهُ اللهُ منهُ "فَإِذا هُوَ قد خرَّ كقطعةِ جبلٍ، إلّا أَنَّه رمادٌ مُحترِق."[٢٣]، ويُتابعُ التَّنوخي خَبرَه فيذكُر أنَّ الرَّجلَ والمرأةَ قد جَمَعا الجَواهرَ التي وجَداها في ذلكَ القَصر، وقدْ طلعَ لهُما بعد أيامٍ مركبٌ مرَّ من تلكَ الجَزيرةِ المَهجورةِ فحمَلَهُما إلى البَصرةِ، إذْ يذكُر أنَّهما تزوَّجا وأنجبا أطفالاً.

والقصَّةُ تحملُ كثيرًا من الأحداثِ الغَريبةِ، منها: أن يجدَ الرَّجلُ والمَرأةُ طَعامًا لم يعرِفا مَصدرهُ،

فيسألُها عنه فتجيب إنها قد وجدتهُ هنا، وفي حديثِه هذا تناصٌ إحاليٌّ، مع ما حدَّثَ به القرآن الكريم عن مريم العذراء عليها السلام، فقام بإحالة القارئ ذهنياً إلى قولِه تعالى: "كُلَّما دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قَالَ يَا مَرِيَمُ أَنَّى لَكِ هَذاْ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" (سورة آل عمران، الآية ٣٧).

وفي تحليلِ المَواطنِ التي ظَهرتْ فيها العَجائبيَّة في القِصّة، تواجهُ القارئَ مواطنُ مضيئةٌ في نصوصِ التَّنوخي قد استعمل فيها أثناءَ حبكتِه القِصَصية كلّ ما تبنَّته بعدئذٍ نظريةُ الأدبِ العجائِبيِّ الحديث، وأذكرُ منها:

١. استفتاحيّة الخبرِ بأنْ انسحبَ من دورِ الراوي وأسندَه لغيرِه بقولِه "حدّثنا المعتصِم"، وهذا كما هو معلوم من أساسياتِ الأدبِ العجائبي وهو الاستفتاحُ بألفاظٍ تبعدُ المتحدّثَ عن المشهدِ بقولِ (سمعتُ، وأخبرنا، وزعموا، ويُروى أنَّ...الخ)، كما في ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة وغيرِهما من كتابات الأدب العجائبي عبر التاريخ. والكاتب هنا كما في كلّ أخبارِه العجائبية الآتية _ كما سيُلاحَظ_ يتنصّلُ من صلتِه بالحدَثِ المرويّ ويحيلُهُ إلى آخرينَ يُلقي على عاتقِهم صدقَ الحكاية المرويّةِ أو كذِبَها. وهنا تبرزُ فطنةُ التنوخيّ ومدى الأثر الذي خلَّفتهُ وظيفتُه القضائيّة في شخصيَّتِه ونفسِه، فهو أعلمُ الناسِ وأخبرُهم بحيلِ التنصُّلِ من الكذبِ وزيفِ القولِ والتهرُّبِ من المُساءَلةِ عن طريقِ التلاعُبِ بالألفاظ. ومن كلّ تلك الحيلِ قرّر التنوخيُّ اقتفاءَ أثرِ الحديث الشريفِ واستخدام السند كبوابةٍ يلجُ من خلالِها إلى نصّه العجائبي.

٢. ويؤكّدُ الدكتور نبيل الشاهِد في كتابِه (العجائبي في السردِ العربي القديم) أنَ "الحرف (أنَّ) الوارد في نهايةِ المستهلِّ، يشكِّلُ فاصلا لغوياً بين الاستهلال الحكائي الخارجي، والاستهلالِ الحكائي الدّاخلي. الذي سيبدأ بعد التوطئةِ المفصولةِ عنه"[٢٤]، والقارئُ لأخبار التَّنوخيّ يرى جلياً تكرارَه في استهلالِ جلِّ أخبارِه للحَرفِ (أنّ).

٣. لا تكادُ تخلو أخبارُ التنوخيِّ من عنصرِ المفاجأةِ للقارئ، فتراه يَستفتحُ أخبارَه بأحداثَ طبيعيَّةٍ تماماً لا تُثير الشكّ أو الرُّعبَ في نفسِ القارئ حتّى يظنَّ أنّه يقرأُ خَبراً عاديّاً، فما يلبثُ أنْ يحوِّلَ خبرَهُ فجأةً إلى خبرٍ غريبٍ عجائبي بإقحامِ الخيالِ والغَرابةِ عليه. فهو مثلاً في الخبر المُناقَشِ يَستفتحُ القِصّةَ بسلاسةٍ واعتياديَّة، فلا يكاد القارئُ يصدِّقُ تلكَ الاعتياديَّة حتّى يتحوّلَ الخبرُ إلى الغريب العجائبي فجأة حين تبدأ المرأة بقصِّ حكايتها على الرَّجل بقولِها "فخرجَ عليَّ شيطان...الخ"

وقد اتَّبعَ هذا الأسلوبَ الكثيرُ من أعلامِ الأدبِ العَجائبيِّ الحديثِ مثلِ غارسيا ماركيز، وإيزابيل

أليندي، وآرنست هوفمان، وإدغار بو، وغيرِهم الكثير...

ويظهرُ التَّنوخيّ في خبرٍ آخرَ مِن أخبارِه متأثِّراً بالقَصَصِ القُرآنية الّتي تُصوّرُ العَذابَ الّذي لَحقَ بالأقوامِ العَاصيةِ للهِ وأَنبيائِه، ففِي إِحدى أَخبارِه يَذكرُ أنَّ رَجُلاً مَجوسيّاً يَردِفُ على حِمارِه امرأتَه الحاملَ وقدْ أرادَ أنْ يَعبُرَ أَحَدَ الجُسورِ في البَصرةِ، فمنَعهُ النّاسُ من ذلك وطَلَبوا منهُ مالاً فأَبَى دفعهُ، فقامُوا فَقَطعوا ذنبَ حِمارِه، فاضطربتْ زوجتُه وأسقطتْ جَنينَها، واشتدَّت محنتُه فذَهبَ إلى رئيسِ القومِ الّذي كانَ أكثرَ فظاظةً حينَ طلبَ منهُ أنْ يُعطيهم زوجتَه ليطَؤوها حتّى تَحمل، "فَرفع المَجُوسيُّ رَأسَه إلى السَّماء، وَقَالَ: اللَّهُمَّ، إِن كَانَ هَذَا الحُكمُ من عنْدِك، وَأَنتَ بِهِ رَاضٍ، فَأَنا بِهِ أرْضى وأرضى.[٢٥]

حتّى هنا، يبدو الخبرُ طبيعياً للقارئِ لا عجائبية فيه ولا غريب، غيرَ أنّه يكمِلُ قاصّاً أن اللهَ بعثَ إليه ملكًا من الملائكة، فأخذ بعضده، وعضد زوجته، فعبر بهما الجسر. فقال لَه: يَا عبد الله، من أَنْت؟ فلقد مننت عَليّ. قال: أَنا ملك من الملائكة، لما أَن قلت: اللَّهُمَّ إِن كان هذا حكم من عندك، وأَنت بِهِ راض، فأَنا أرضى وأرضى؛ بَعَثَنِي الله لأخلصك، فالتفِت إِلَى القَوْم، وَانْظُر مَا أَصَابَهُم. فَالْتَفت المَجُوسِيّ، فَإِذا القَوْم قد خسف بهم."[٢٦]

وفي هذا الموضعِ تتأتّى عجائبيةُ الخبرِ. ويتّضِحُ أيضاً مدى تأثُّرِ التنوخيِّ بقصص الأقوام السابقة الواردةِ في القرآن الكريم، فقد ذكر الله تعالى قصّة خسفِهِ بقارونَ إذ قال عز من قائل: "فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ" (سورة القصص، الآية: ٨١). أمّا أنَّ خسفا كانَ في البصرةِ فهذا لمْ يردْ في أيِّ حديثٍ أو غيرِه، وإنّي لأظنُّ أنَّ التَّنوخيَّ ابتكرَ هذا الخبرَ متأثرًا بالقرآن الكريم كما ذكرتُ سابقًا.

وممّا يؤكِّدُ تأثُّر التَّنوخيِّ بقَصَص الأنبياء مع أقوامِهم، ذلك الحِوارُ الذي جَرى بينَ بطلِ خبرِه والمَلكِ الذي أرسلَه اللهُ من السَّماء لمُساعدتِه. ولا يقتَصرُ هذا النَّوع من الحِوارِ _الإنْسانيِّ المَلائكيِّ إنْ جازَ التعبيرُ_ على هذا الخبرِ، فالتنوخيُّ يُجري في خبرٍ آخر حوارًا بينَ بطلِه الذي كانَ فقيرًا فأغناهُ اللهُ من فضله، ومَلَكٍ أرسلَه اللهُ لاختبارِه أيتصدق بعدَ أنْ أنعمَ اللهُ عليهِ أمْ يمسكُ يدَه عن فعلِ الخيراتِ؟

إذ لقيَ بطل ذلك الخبر فقيراً على البابِ فأعطاهُ نصفَ مالِه، "فَقَالَ: خُذ نِصفَ هَذَا المَالِ، فَأخذَ الرجلُ الْفَقِيرُ سِتّ بِدَرٍ، فحملَها، ثمَّ تبَاعدَ غيرَ بعيدٍ، وَرجعَ إِلَيْهِ وَقَالَ: مَا أَنا بِمسكينٍ، ولا فَقيرٍ، وَإِنَّمَا أَرْسلنِي إِلَيْك رَبك، عز وَجل، الذي أَعطاكَ بالدِّرهم عشرينَ قيراطًا، فهذا الذي أَعطَاك قِيرَاطًا مِنْهُ، وذَخَرَ لكَ تسعةَ عشَرَ قيراطًا."[٢٧] وهذا الخبر كما غيرُه من الأخبار التي سيتطرق البحثُ للحديثِ عنها تباعاً تخضعُ بالضرورة لكلّ ما قد سبق تفصيلُه من مقوِّماتِ النصّ العجائبي عند أبي القاسم

التنوخيّ من ذكر سندٍ للخبر نأياً بنفسِه عن اتهامِها بالكذبِ والتَّزييفِ، واستخدامِ (أنَّ) كفاصلٍ بينَ الاستهلالِ الحِكائيِّ الدّاخليّ والخَارجيّ، والتَّمهيد للعجائبيَّة باستفتاحيَّةٍ حِكائيةٍ طَبيعيّة..

العجائبية وارتباطها بالحيوانات:

تُسهمُ الحَيواناتُ في صُنعِ الأخبارِ والقِصَصِ العجائبيَّةِ منذ ولادةِ القصِّ والأخبار ويظهر ذلكَ جليّاً عند المعرّي في رسالةِ غفرانِهِ كما عند ابن المقفع في كليلة ودمنة، وجلالُ الدين الرومي في بعضِ قصص مثنويه وفي منطقِ طيرِ العطّار، وغيرها الكثير من القصص المروية على ألسنة الحيوان..

ويستعين التنوخيُّ بعالمِ الحيوانِ كثيراً في أخبارِه، مضمناً أخبارها الأسلوبَ العجائبي أو مبقيها بعيدةً عنه، فهوَ ينطقُها أحياناً ويتخذ منها مجردَ وسيلةٍ لحَبكةِ خبرٍ ما أَحياناً أُخرى، فيُنطِقُ الحيَّة والطَّيرَ، ويُبقي الفِيَلَة والعقابَ، والأسدَ أبطالاً فاعلينَ يَقودونَ مَجرى أحداثِ أخبارِه بصمت.

ففي أحدِ أخبارِه مثلاً، يُنطقُ التنوخيُّ الحيَّةَ فتتكلمُ مع رجلٍ خبَّأَها في جوفِه بعدَ أنْ طلبتْ منهُ أنْ يُجيرَها من آخَرٍ كانَ يَنوي قتلَها، "فَلَمَّا أجارَها، وَانْصَرفَ مَن يُريد قَتلهَا، قَالَتْ لَهُ الْحَيَّة: لَا بُدّ من قَتلك. فَقَالَ لَهَا الرجل: لَيْسَ غنىً عَن هَذَا؟ قَالَتْ: لَا. قَالَ: فأمهلِيْني، حَتَّى آتِي سفحَ جبلٍ، فأصلّي رَكْعَتَيْنِ، وأدعو اللهَ تَعَالَى، وأحفر لنَفْسي قبرا، فَإِذا نزلتُه، فافعَلِي مَا بدا لَكِ. قَالَتْ: افْعَل."[٢٨]

وينهي التَّنوخيُّ خبرَه بعدَّة روايات يمكن القول إنَّها تتفِقُ في أَحداثها، وتختلفُ في سندِها. فالخبر ينتهي بحوارٍ بين مجيرِ الحيَّةِ وفتىً ساعدَه في النجاةِ من مكرِ تلكَ الحيّة، فسأَله: "من أَنْت يَرْحَمك الله؟ فَمَا أحد أعظم عَليّ منَّة مِنْك، فَقَالَ: أَنا الْمَعْرُوف، إِنّ أهل السَّمَاء رَأَوْا غدر هَذِه الْحَيَّة بك، فسألوا الله عز وَجل، أَن يعيذك، فَقَالَ لي الله تَعَالَى: يَا مَعْرُوف، أدْرك عَبدِي، فإياي أَرَادَ بِمَا صنع"[٢٩].

ولعلَّ التنوخيَّ في هذا الخبرِ كانَ متأثراً بمعجزةِ سيّدِنا سُليمان الذي كانَ يُكلِّمُ الحَيوانات والطُّيور. وقد أثبتَ اللهُ تَعالى ذلكَ في القُرآن الكَريمِ إذْ قالَ عزَّ مِن قائلٍ: "وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ" (سورة النمل، الآية ١٦).

وأرى أن التنوخيّ وظّفَ في هذا الخبر حنكتَهُ القضائية، واختارَ أن يُقحِمَ ثاني مرجعيّةٍ موثوقةٍ لدى العربِ بعدَ القرآن الكريمِ والسنة النبوية، ألا وهي التراثُ العربي القديم، فلجأ في ذلك إلى السير على خطى أحد أكثرِ الأمثال العربية شهرةً، وهو مثلُ (مُجير أمِّ عامر) الذي يحكي قصة الضبعِ التي بقرتْ بطنَ مجيرِها من قاتليها. غيرَ أنّه أضافَ عليها لمستَه العجائبية ليدهِشَ قارئَهُ بما هو

فريد وجديد.

كما يُنطق التَّنوخيُّ المَلَكَ المُتمثِّل في صورةِ فَتىً أَطلقَ عليهِ اسمَ (المعروف) وأَلبسَه ثيابَ الرِّجالِ من الإنسِ، وكأنّي به لم يجدْ حلاً لهذه العُقدةِ التي ابتكرَها إلّا أنْ يُخرجَ شيئاً لم يعتدْ الناس رؤيتَه، في قصةٍ اعتادَ العربُ على سماعِ مثلِها من إجارة البشر للحيوانات، وقدْ كانَ ذَكيّاً بالفعلِ في ما سَعى إليهِ إذْ إنَّ الخبرَ اكتسبَ صفةَ التَّصديقِ لاقترانِه بالمُعجزات الإلهيَّةِ التي لا يَدخُلها الشكُّ، والأمثالِ العربيَّةِ التي لها كبيرُ الأثرِ في نفسِ العربيّ فهي تاريخهُ وتراثُهُ الذي يفتخرُ به.

ويسرُد التَّنوخيُّ في خبرٍ آخرَ قِصةَ رجلٍ أرغمتهُ الضَّرورةُ على رُكوبِ الأسدِ[٣٠]، فبطلُ هذا الخبرِ رئيسُ قافلةٍ تعرَّضتْ لها الخَيلُ في البرِّية، فانهزمَ أصحابُه بعدَ معركةٍ طويلةٍ انتهتْ بغدرِ أولئِكَ المُهاجمين بِهم ليلاً، وقد أعملَ المُهاجِمونَ ببطلِ هذا الخبرِ جراحاتٍ كثيرةً هالتْ من رَآها، فرمى نفسَه بينَ القَتلى دونَ أنْ يُشَكّ بتلفِه، ثم أفاقَ بعدَ ساعةٍ فتحاملَ على نفسِه فنهضَ باحثاً عن ماءٍ فلم يجدْ شيئاً، فأيقنَ بالهلاكِ، فأخذَ يطلبُ شجرةً يستظلُّ بها، يقول: "فَإِذا أَنا قد عثرت بِشَيْء لَا أَدْرِي مَا هُوَ، فِي الظلمَة، فَإِذا أَنا منبطح عَلَيْهِ بطولي وَطوله. فثار من تحتي، وعانقته، وَقدرته رجلا من الأَعْرَاب، فإذا هو أَسد. فحين علمت ذَلِك طَار عَقْلِي، وقلت: إِن استرخيت افترمني، فعانقت رقبته بيَدي، ونمت على ظَهره، وألصقت بَطْني بظهره، وَجعلت رجْلي تَحت مخصاه وَكَانَت دمائي تجْرِي، فحين داخلني ذَلِك الْفَزعُ الْعَظِيم رقأَ الدَّم، وعَلِقَ شَعرُ الْأسدِ بأَفواهِ أَكثرِ الْجِرَاحَاتِ، فَصَارَ سدادًا لَهَا، وعَونًا على انْقِطَاعِ الدَّمِ، لِأَنِّي حصلتُ كالملتصق عَلَيْهِ.

وَوردَ على الْأسدِ منّي أطرفُ مِمَّا وردَ عَليّ مِنْهُ وَأعظمُ، وَأَقْبلَ يجْرِي تَحتي كَمَا تجْرِي الْفرسُ تَحتَ الرَّاكِب الْقويّ، وَأَنا أُحسُّ بِروحِي تَخرجُ، وأَعضائِي تَتَقصَّفُ مِن شدَّة جَريِه، وَلمْ أَشكّ أَنَّه يقْصِدُ أَجَمَةً بِالْقربِ فيُلقيني إِلى لبْوَته فتَفترِسُني. فَجعلتُ أَضبِطُ نَفسِي مَعَ ذَلِكَ، وأُؤَمّل الْفرجَ، وأُدافِعُ الْمَوْتَ عَاجِلاً، وَكلَّما همَّ أَنْ يربِضَ ركلتُ خصاه بِرِجلي فيَطيرُ، وَأَنَا أَعَجبُ مِن نَفسِي ومَطِيّتي، وأدعو اللهَ عزَّ وَجلَّ، وَأَرْجُو الْحَيَاة مرّةً، وَمرَّة آيَسُ مِنْ نَفسِي. إِلى أَنْ ضَرَبَنِي نَسيمُ السَّحرِ، فَقَوِيتْ نَفسِي، وَأَقْبلَ الْفجْرُ يضيءُ، فتذكَّرتُ طُلُوعَ الشَّمْسِ فَجَزِعتُ، ودعوتُ اللهَ تَعَالَى، وتضرَّعتُ إِلَيْهِ.

فَمَا كَانَ بأسرعَ مِن أَنْ سَمِعتُ صَوتًا ضَعِيفًا لا أَدْرِي مَا هُوَ، ثمَّ قَوِيَ، فشبَّهتُه بِصَوْتِ ناعورةٍ، والأسدُ يَجْرِي، وَقَوِيَ الصَّوْت، فَلم أَشكَّ فِي أَنَّه نَاعورةٌ.

ثمَّ صَعَدَ الأسدُ إِلَى تلٍّ، فَرَأَيْتُ مِنهُ بَيَاضَ مَاءِ الْفُرَات وهوَ جَارٍ، ونَاعورةً تَدورُ، والأسدُ يَمشي على شاطِئِ الفُرَات بِرِفْقٍ، إِلى أَنْ وجدَ مَشرعةً، فَنزلَ مِنْهَا إِلى المَاء، وَأَقْبلَ يسبحُ ليبعُد."[٣١]

وما زال الأسدُ يرفق بصاحبِهِ حتّى سقطَ عنهُ

وسبحَ فإذْ بِهِ يَرى جزيرةً قريبةً قَصَدَها وطَرَحَ نفسَه عليها، وبعدَ ساعةٍ مرَّ بهِ زورقٌ حملَهُ فَنَجَا.

ويذكرُ التَّنوخيُّ في نهايةِ خبرِه هذا تَعجُّبَ أَصحابِه من نجاتِه كمَا يؤكِّدُ لهُ أصحابُه أنَّ الأسَدَ قد سارَ به مسافةَ أَربَعِينَ فَرسَخًا على غيرِ مَحَجَّةٍ[٣٢].

والمتأمِّلُ لهذا الخَبرِ لنْ يتَعجَّبَ من رُكوبِ البَطلِ للأَسَدِ فحسْب، إذْ لا بدَّ أنْ يقفَ طَويلاً أمامَ دِقَّةِ تَصويرِ التَّنوخيِّ لهذا الرُّكوبِ، فقد صنَعَ من الأسدِ طبيباً يداوي جراحَ مريضِهِ، وهذا يؤكِّدُ دِقَّةَ التَّنوخيِّ في تصويرِ الأَحداثِ. ومِنَ الجديرِ ذكرُه هنا أنَّ صاحبَ البَحثِ لمْ يعثُرْ على أيِّ خبرِ _قديمٍ كانَ أم حديثٍ_ يَظهرُ فيهِ إنسانٌ راكبًا أَسدًا.

وللفيلةِ دورٌ أيضاً في رسمِ معالِمِ غيرِ خبرٍ مِن أخبارِه العجائبيَّة، فهذا الخبرُ يَحكي قصَّةَ رجلٍ يعيشُ منْ صَيدِ الفِيَلةِ، وقد كانتْ لهُ طريقةٌ في ذلكَ، إذْ كانَ يَرقُبُ فوقَ شجرةٍ عظيمةٍ قطيعَ الفِيَلةِ وهمْ يَرِدونَ الماءَ حتّى إذا ذَهبوا جميعاً ضَربَ آخرَهم بسهمٍ مَسمومٍ تَجفُلُ معهُ الفيلةُ فتهرُبُ عنه، ثمَّ ينزلُ إلى الفيلِ وقد ماتَ فيسلخُ جِلدَهُ ويأخذُ أَنيابَهُ ليبيْعَها في السّوقِ.[٣٣]

ولما كانَ ذلكَ اليومُ صعدَ بطلُ هذا الخبرِ إلى شجرةٍ عظيمةٍ وفعلَ ذاتَ الفِعلِ الذي اعتادَ، بيدَ أنَّ فيلاً عظيماً عادَ ينظُرُ إلى أَخيهِ المَقتولِ فعلِمَ أنَّ يدَ إنسانٍ هي مَنْ فعلتْ ذلكَ، ويُتابعُ خبره فيذكُرُ أنَّ الفيلَ العظيمَ بحثَ عنهُ فوجدَهُ فوقَ تلكَ الشَّجرةِ العَظيمةِ فكَسَرها عليهِ فهَوى أَرضًا ظانًّا ألّا ملجأَ مِنَ الهَلاكِ. لكنَّه وجدَ الفيلَ العظيمَ يلُفُّ عليهِ خُرطومَهُ برفقٍ ويَجعلُه على ظَهرِه ويُهرولُ. وهُنا يظنُّ البَطلُ أنَّه صارَ وجبةً لهذه الفِيَلةِ، إلّا أنَّ التنوخيَّ يفجأ قارئَهُ ولا يُنهي الخَبرَ على هذا النّحْو، فيستطردُ بأنَّ ثعبانًا كانَ يتعرَّضُ لهذِه الفِيلةِ ويقتلُها، فَضربَه البطلُ بِسهمٍ أرداهُ قَتيلاً، ليُتابعَ الفيلُ هرولتَه حتّى يُنزلَ ذلكَ الرَّجلَ في مكانٍ يجمَعُ عدداً كبيراً من الفيلةِ المَيْتةِ، فيجمعُ لهُ أنيابَها، وتحملُها الفيلةُ الحيَّةُ إلى مكانٍ قريبٍ من قريتِهِ، فتنزلُها هناك ويُنْزلُه الفيلُ العَظيمُ عن ظَهرِه برفقٍ، وتُغادرُ الفيلةُ المكانَ، فيذهبُ الرَّجل إلى قريتِه ويأتِي بحمّالِينَ حَملُوا هذا التلَّ منَ الأنيابِ كما قالَ. وقدْ باعَ الرَّجلُ هذه الأنيابَ الكثيرةَ التي أغنتْه عنْ صيدِ الفِيَلة.

ولعلَّ العجيبَ في هذا الخَبرِ هو تلكَ الفِطنةُ الّتي دفعتْ الفِيلةَ إلى مُكافأةِ هذا الرَّجلِ. فالفيلةُ هنا حكيمةٌ تمتلكُ عقلاً تَستخدمُه على خلافِ الكثيرينَ الذين يَمتلكونَ عقولاً موصَدَةً.

كما يُنطِق التَّنوخيُّ في أحدِ أخباره العجائبيةِ طيرًا صغيرًا [٣٤]، إذْ اشتَرى بطلُ هذا الخبرِ طيوراً للتّجارةِ فماتتْ كلُّها منَ البَردِ إلّا أَصغرَها، فأيقنَ بالفَقرِ وأَخذَ يبتهلُ إلى اللهِ تَعالى ليلَتَه أَجمع قائلاً: يا غِياثَ المُستغِيثِيْنَ أَغثْنا، والعَجيبُ أنَّ هذا الطيرَ الصَّغيرَ لمّا طلعَ الصَّباحُ أخذَ يردِّدُ مقولةَ صاحِبِه، فاجتمَعَ النّاسُ عليهِ، واشتراهُ أحدُهم

بمالٍ عَظيمٍ، فكانَ ذلكَ سببًا في تَفريجِ همِّ صاحِبِه.

وفي خبرٍ آخر تنقذ الأم ابنها الغائب من أسد عظيم حين تطعم مسكينا لقمة خبز كانت تهم بأكلها، إذ يتبين أن رجلا عظيم الخلق أبيض الوجه خلّص ابنها في ذات الوقت من أسد كاد يفترسه، إذ "قبض على الْأسد من غير سلَاح، وشاله وخبط بِهِ الأَرْض. وَقَالَ: قُم يَا كلب، لقْمَة بلقمة، فَقَامَ الْأسد يُهَرْوِل، وثاب إِلَيّ عَقلِي. فطلبت الرجل، فَلم أَجِدهُ، وَجَلَست بمكاني سَاعَات، إِلَى أَن رجعت إِلَيّ قوتي، ثمَّ نظرت إِلَى نَفسِي، فَلم أجد بهَا بَأْسا، فمشيت حَتَّى لحقت بالقافلة التي كنت فيهَا، فتعجبوا لمّا رأوني، فحدثتهم حَدِيثي، ولم أدر مَا معنى قَول الرجل: لقْمَة بلقمة."[٣٥]

والتَّنوخيُّ يَحثُّ في هذا الخَبرِ على الصَّدَقةِ وهذا ليسَ بِغريبٍ عليهِ، فقدْ كانَ سببُ تَأليفِ كتابِهِ (المُستجادُ مِن فَعَلاتِ الأَجوادِ) جَمعَ قِصَصٍ تَحثُّ على الكَرَمِ والجُودِ، بعدَ أنْ طلبَ أَحدُهم منهُ ذَلكَ. والتَّنوخيُّ يَؤكِّدُ هذا في مقدمةِ الكِتابِ إذْ يَقولُ: "أمّا بعدَ أَطالَ اللهُ في النَّعمةِ عُمُرَك، وحَسَّنَ مع التُّقى عَملكَ، وبلَّغَكَ في السَّلامةِ أَملكَ، وختمَ بالصّالحاتِ أَجلكَ، فإنَّكَ طلبتَ مِنّي أنْ أَجمعَ لكَ مِنْ أَخبارِ الأَجوادِ أَجودَها ومِن فِعالاتِ الكِرام أسنَاها وأَرشَدَها، فاستخرتُ اللهَ في المَقالِ، وتخيَّرتُ من ذلكَ ما سَنحَ لي في الحَالِ، ممّا أحسبُهُ يستفزُّ القارئَ والسّامعَ، ويقعُ منهُ أرفعَ المَواقِعِ، وألَّفتُه كِتاباً سمَّيتُه المستجادَ من فعالاتِ الأجوادِ فكانَ للقَبِه مُطابقاً، ولغَرضِكَ موافِقًا، ولِما يُستَحسَنُ سابِقًا، وما تَوفيقِي إلّا باللهِ عليهِ توكَّلتُ وإليهِ أُنيبُ."[٣٦]

ويرى النّاظرُ لأخبارِ التَّنوخيِّ السّابقة الذّكر دعوَتَهُ غيرَ المباشرةِ النّاسَ إلى تحرّي الصِّدقِ في الدُّعاء والتَّضرُّعِ إلى اللهِ تَعالى، وحسنِ الخُلُقِ والقولِ الحسنِ، فهو يحثُّ من خلالِ أخبارِه الناسَ على التَّمثلِ بالأخلاقِ الفَضيلةِ التي دَعا إليها الإسلامُ ولكنّه آثرَ أنْ يفعلَ ذلكَ بطريقةٍ لافتةٍ للنَّظرِ والذِّهنِ، فجمعَ في جلِّ أخبارِه المذكورةِ آنفاً بينَ لونٍ جديدٍ من ألوانِ الأدبِ في ذلكَ العصرِ من جهةٍ، والنصيحة الدينيّةِ المعتادَةِ من جهةٍ أُخرى، ولكنْ بأسلوبٍ فنيٍّ أدبيٍّ فريدٍ من نوعِه، يكشِفُ عن حنكةٍ وذكاءٍ كبيرَين، ويؤسِّسُ من خلالِهما لشكلٍ أدبي جديدٍ أضفى عليهِ طابعَ الفضيلةِ والدينِ والتراثِ العربيِّ الأصيلِ ليكونَ مقبولاً ومرحَّباً به عندَ أُناسٍ لمْ يَعهدوا هذا الشَّكلَ من القَصِّ سابقاً.

العجائبيَّة والأدبُ الصّوفيُّ:

استفادَ التَّنوخيُّ أيضاً من حَكايا المتصوِّفةِ وقِصَصِهم الثّريَّةِ بالخوارِق والعَجائبِ التي تنطلقُ من ما يطلقونَ عليهِ اسمَ (الكرامات) التي تتأتى للصوفيِّ من علوِّ شأنِهِ وصلَتِه الرّوحيَّةِ بالذّاتِ الإلهيَّة، وهذه الكرامات تكونُ عادةً أفعالاً خَارقَةً تتجاوزُ الطبيعةَ الإنسانِية وتخرِقُ نظامَ الطَّبيعةِ، وهذا يجعلُ المؤلفاتِ الأدبية التي كتبت

في حكايا المتصوفة تندرجُ تحت مظلّة الأدب العجائبي بالضرورة والذي كما وردَ سابقاً عند تودوروف هو "التَّردُّدُ الذي يُحسُّ بهِ كائنٌ لا يَعرفُ غيرَ قَوانينِ الطَّبيعةِ فيما يُواجهُ حَدثًا غيرَ طبيعيٍّ حسبَ الظّاهر."[٣٧]

فالتَّنوخي في غيرِ خبرٍ من أَخبارهِ العَجائبيَّةِ ينحازُ إلى المتصوِّفةِ مُعتقدًا صحَّةَ ما يدَّعونَ، فَفِي هذا الخبرِ مثلاً يَجري حديثٌ عنْ التَّوكُّلِ على اللهِ بينَ جماعةٍ تَمشي في الصَّحراءِ، فيَحلفُ شيخٌ صوفيٌّ أَيمانًا مغلَّظةً "لا ذُقتُ شَيئًا، أَو يبْعَث اللهُ، عزَّ وَجلَّ، إِلَيّ جَامَ فالوذَجٍ حَارٍّ، وَلا آكلهُ إِلّا بعدَ أَنْ يُحلَفَ عَليّ، أَو يُجرى عليَّ مَكرُوهٌ،"[٣٨] فتُنكِرُ الجَماعةُ قولَه ويتفرَّقونَ عنهُ، لكنَّهُ يُصرُّ على يَمينه الذي لمْ يحنثْ بهِ لأنَّ جاريةً جاءَتْه بعدَ ثلاثةِ أَيامٍ وهو جالسٌ في مسجدٍ، فأَطعمتْهُ رغماً عنهُ جامَ فالوذَجٍ حارٍّ. ولكنْ، هلْ هذا توكُّلٌ على اللهِ؟ وهلْ يكونُ التَّوكُّلُ على اللهِ بهذهِ الطَّريقةِ؟

وفي خبرٍ آخرَ يَظهرُ صُوفيٌّ وقدْ عاهدَ اللهَ أَنْ لا يَأْكُل لحم فيلٍ أبدًا، ويتبيَّنُ مِنَ الخبرِ أنَّ صدق ما عاهدَ اللهَ عليهِ، وصدقَ توكُّلِه على اللهِ أنجاهُ مِنْ بطشِ الفِيل الذِي نَهشَ أصحابَهُ لقتلِهم ولدَهُ. بلْ إنّ الفيلَ الذي نَهشَ أصحابَه هو ذاتُه الذي حَملَه وسارَ بهِ مسافةً طويلةً فأنقذَه منَ الهَلاك لأنه لم يشترِكْ معهم في إيذاءِ ولدِه وقتلِه.[٣٩]

فيرى القارئُ التنوخيَّ في أخبارِه عن المتصوِّفة، يحثُّ على صِدقِ العَهد مع اللهِ وحُسنِ التوكُّلِ عليهِ، ولكنْ بطريقةٍ عجائبيةٍ غير اعتِيادية. كما يَلحَظُ أيضاً أنّ التَّنوخيَّ يُحاوِلُ تقريبَ صورةِ الأدبِ العَجائبيِّ من ذِهنِ القارئِ، مذكِّراً إيّاه بأنّه قد سمعَ الكثيرَ ربَّما من القِصَصِ الغَريبةِ والعَجيبة على لِسانِ المُتصوّفة، خاصّةً وأنّ المَذهبَ الصوفيّ كانَ في أوج انتشارِه وذياع صيتِه بين أهل العَصرِ العبّاسيّ، ولكنّ الجديدَ هو استخدامُ تلكَ القِصَصِ في قالبٍ أدبيٍّ فريدٍ ومختلِفٍ عمّا عَهدُوه مِنْ قَبلُ.

العجائبيَّةُ والأَحلامُ:

ترتبطُ العجائبيَّةُ كثيرًا في أَخبارِ التَّنوخيِّ بالأحلامِ التي يَصلُ تصديقُها عندَ أبطالِه حدَّ اليَقينِ، وهذا أيضاً تأثُّرٌ بالأدبِ الصّوفيِّ الذي تَرتبطُ فيهِ الخَوارقُ بالأَحلامِ والهَذيانِ[٤٠]، فبطلُ أحدِ أخبارِه يرثُ مالاً جليلًا يُتلفُه حتّى يصلَ بهِ الفَقرُ إلى بيعِ دارِه، إلّا أنَّه يَرى في المَنامِ أنَّ غِناهُ في مِصرَ فيُسافرُ مِن العِراقِ إلى مِصرَ ليَقينِه بِصحَّةِ هذا الحُلُم الذي رأَى. ويبثُّ التَّنوخيُّ التَّشويقَ في نفسِ القارئِ إذْ لا يَنسى أنْ يُصوِّرَ حالةَ بطلِهِ في مِصرَ التي وصلتْ حدًّا كادَ يدفَعُه إلى الكُديةِ، لكنَّ هذه الحالَةَ سُرعانَ ما تتغيَّرُ حينَ يَقبضُ عليهِ شرطيٌّ أَنكرَ حالَهُ وقدْ كانَ يَمشيْ في الطّريقِ ليْلًا. ويدورُ حِوارٌ بينَهُما يَقصُّ فيهِ البَطلُ حكايتَهُ التي جاءَ مِن أجلِها إلى مِصرَ، فينعتُهُ الشُّرطيُّ بالحُمقِ قائِلًا: "أَنْتَ رجلٌ مَا رَأَيْتُ أَحمَقَ مِنْك، وَاللهِ لقدْ رَأَيْتُ مُنْذُ كَذَا وَكَذَا سنةٍ، فِي النّومِ، كَأَنَّ رجلًا يَقُولُ لي: بِبَغْدَادَ

فِي الشَّارِع الْفُلَانِيّ، فِي المَحلَّةِ الفُلَانِيَّة، فَذكرَ شارِعِي، ومَحلَّتِي، فَسكتُّ، وأَصغيتُ إِلَيهِ، وَأتمَّ الشُّرطيُّ الحَدِيثَ، فَقَالَ: دَارٌ يُقَال لَهَا: دَارُ فلَانٍ، فَذكرَ دَاري، واسمِي، فِيهَا بُسْتَانٌ، وَفِيه سِدْرَةٌ، وَكَانَ فِي بُسْتَان دَاري سِدْرَة، وَتَحْتَ السِّدْرَة مدفونٌ ثَلَاثُونَ ألفَ دِينَارٍ، فَامْضِ، فَخذْهَا، فَمَا فَكَّرت فِي هَذَا الحَدِيثِ، وَلا الْتفتُّ إِلَيْهِ، وَأَنتَ يَا أَحمَقُ، فَارَقتَ وطنكَ، وَجئتَ إِلَى مِصرَ بِسَبَبِ مَنَام."[٤١]

ويتابع خبرَه إذْ يذكُرُ أنَّ البطلَ عادَ إلى بلدِهِ فوجدَ صِحَّةَ ما أَخبرَهُ بِهِ الشُّرطيُّ، فتَغيَّرتْ حالُه وعاشَ كريمًا مِن فضلِ تلكَ الدَّنانيرِ.

ولا بدَّ من الذكرِ _ ولو عَرَضاً_ بأنّ الكثير من الأدباءِ أخذوا هذا الخبرَ العجائبيَّ من التنوخيِّ وأعادوا صياغتَه في قِصصٍ وروياتٍ مشابهةٍ لهُ إلى حدٍّ كبيرٍ مع اختلافِ الغايةِ من روايتِه، ومِنهم الأديبُ الصوفيُّ جلالُ الدّينِ الرّوميّ في الجزءِ السادِس من كتابِه المثنوي[٤٢]، وقام الكاتب البرازيلي (باولو كويلو) عام ١٩٨٨ بتحويلِ ذاتِ القصّةِ إلى رواية تحملُ اسمَ (الخيميائي).[٤٣] ولعلّ العاملَ المشترَكَ بين الحكايا الثلاث هو العجائبيةُ التي بدتْ واضحةً المعالِمِ في ثلاثتِها، مع ملاحظةِ أنّ جُرعةَ العجائبيَّةِ عند باولو كويلو كانتْ مكثَّفةً أكثرَ ممّا هي عليهِ عندَ التّنوخيّ وجلالِ الدينِ الرّوميّ.

وفي خبرٍ آخرَ من أخبارِ العجائبيَّةِ في الأحلامِ وتحقُّقِها، يروي التنوخيُّ أنّ صاحبَ الشرطةِ في بَغْدَاد يرى منامًا يُرشدُه إلى القاتِلِ وَيُبرئ مَظْلُومًا، يقولُ صاحبُ الشرطةِ في ذلك: "رَأَيْتُ شَيخًا بَهيًا نَظيفَ الثَّوْبِ، على رَأسِه قُلنسوةٌ لاطيَّةٌ، وَفِي يَدهِ عُكازٌ، فَسلَّم عَليّ، وَقَالَ: إِنِّي أُرشِدكَ إِلَى مَا فِيهِ مَثُوبَةٌ: فِي حَبسِكَ فيجٌ مَظلومٌ، واقَ مِن الْمَدَائِن، فِي وَقتٍ ضَيّق، فاتُّهمَ بِأَنَّهُ قتلَ رجلًا، وَهُوَ بَرِيءٌ مِن دَمِه، وَقدْ ضُربَ وَحُبسَ، وَقَاتِلُ الرّجلِ غَيرُه، وَهُوَ فِي غرفَةٍ وُسطَى من ثَلاثِ غرفٍ مَبْنِيَّة على طاقِ العكيّ بالكَرخِ، واسْمه فلَانُ بنُ فلَان، ابْعَثْ من يَأْخُذهُ، فَإِنَّكَ ستجدُهُ سَكرَانَ، عُرْيَانَ، بسراويلَ، وَفِي يَده سِكّينٌ مُخضَّبةٌ بِالدَّمِ، فَاصْنَعْ بِهِ مَا تَرى، وَأطلِقْ الفيجَ البَائِسَ.

قلتُ: أَفعَلُ،"[٤٤] ويُتابعُ التَّنوخيُّ خَبرهُ، فتظهَرُ صِحَّةُ الرُّؤيا التي رَآها صَاحبُ الشُّرطةِ، والغَريبُ في الأَمرِ أنْ يُحكَمَ على القاتِلِ بالصَّلبِ، فهذا الحُكمُ لا يُمكنُ أنْ يُطبَّقَ في دولةٍ تتبِعُ الشَّريعةَ الإسلاميَّةَ، إذْ إنَّ الإسلامَ لا يقبلُ التَّمثيلَ بالقاتِلِ أنّ كانتْ جَريمتُه.

ويذكُرُ التَّنوخيُّ في أحدِ الأخبارِ الأُخرى التي تَرتبطُ بالأَحلامِ _وهي كثيرةٌ_ أنَّ الخَليفةَ المُعتضِدَ قامَ من نومِه مُنزعجًا فصاحَ: "ويلَكُم، أَعينونِي، والحقوا الشَّطَّ، فأوّلُ مَن ترونَه مُنحدِرًا في سَفينةٍ فارِغةٍ، فاقبِضُوا عليهِ، وجيْئوني به، ووكِّلوا بسفينَتِه. فأسرَعنا، فوجدْنا ملّاحًا في سَميريّةٍ[٤٥]، فأَصعدْناهُ، فحينَ رآهُ المَلاحُ، كادَ يتلَفُ." ويَسردُ التَّنوخيُّ خبرَ ذلكَ الرَّجلِ إذْ يَتبيَّنُ أنَّه قتلَ امرأةً وسَرقَ حُلِيًّا كثيرةً كانتْ علَيْها. وقدْ سُئلَ الخَليفةُ عَن الخبرِ

فقالَ: "رأيتُ فِي مَنامِي كأنَّ شيخًا أَبيضَ الرّأسِ واللِّحيةِ والثِّيابِ، وهوَ يُنادِي: يا أَحمدُ خُذ أوّلَ ملّاحٍ ينحدرُ السّاعةَ، فاقبِضْ عليهِ، وقرِّرهُ خبرَ المرأةِ التي قتَلَها اليومَ، وسلبَها، وأقِمْ عليهِ الحدَّ."(٤٦)

والذي يُلاحَظُ مِن هذا الخَبرِ وغيرِه مِن الأَخبارِ التي تَرتبطُ بالأَحلام أنّها تكونُ يَقينيَّةً دائماً وهيَ كثيرةٌ كما ذُكرَ سابقًا، لكنَّها مُتشابهةٌ. ومِن الجَديرِ ذِكرُه هُنا أنَّ كثيرًا مِن كُتبِ التُّراثِ العَربيِّ تَمتلِئُ بِما يُشبهُ هذه القِصصَ المُرتبطةَ بالأَحلامِ، وهيَ تسرُدُ قِصصَ كراماتٍ يُردِّدُها الكَثيرونَ وهمْ يُؤمنونَ بمِصداقيَّتِها إيمانًا عميقًا، وقدْ كانَ لذلكَ أَثرُه الواضحَ على ما يُمكنُ القَولُ إنَّه عَجائبيٌّ أو غَرائبيٌّ في التُّراثِ العَربيِّ الذي انطلَقَ من هذه التَّجلّياتِ ليلِجَ بابًا لا حُدودَ لهُ مِن الخَيالِ ضِمنَ عوالمَ استثنائيَّةٍ.(٤٧)

ويلاحظُ القارئ لأخبار التنوخيِّ اهتمامَه بذكرِ سندِ الخبرِ، فهوَ في كلِّ الأَخبارِ العَجيبةِ التي أَوردَها في مُؤلَّفاتِه يُحجِمُ عنْ ذِكرِ ناقِلِ الأساسي فيقطعُ السندَ عن آخرِ رواتِه وينسبُهُ إلى مجهول، فيَقولُ دائمًا: فلانُ بنُ فلانٍ. فالسَّندَ الذي يُميِّزُ أخبارَه _وهوَ يُمثِّلُ السِّمةَ الغَالبةَ لكتابةِ الأخبارِ في ذلكَ العَصرِ، ومَا أَظنُّ ذلكَ إلّا نِتاجًا لتَأثُّرِ الكُتّابِ بِسندِ الحَديثِ الشَّريفِ_، سندٌ منقطعٌ دائماً، فَعلى سبيلِ المِثالِ يَبدأُ الخَبر الذي يَسردُ فيه قِصّةَ الرَّجلِ الذي اعتادَ صَيدَ الفِيلةِ بقولِه: "وَحدَّثَ عبدُ اللهِ بنُ مُحَمَّد بنِ خرسانَ السِّيرافيّ، الْمُقِيم كَانَ بِالْبَصْرَةِ، قَالَ: حَدثني أَبِي، عَن جدّي، قَالَ: ذَكرَ جمَاعَةٌ من شُيُوخِ الْبَحْرَينِ الَّذين تَردَّدوا إِلى بِلادِ الْهِنْد، أَنَّهم سَمِعُوا هُنَاكَ حِكَايَة مُستفيضَةً، أَنَّ رَجلًا كَانَ مَعاشُهُ صَيدُ الفِيَلَةِ"(٤٨)

وكذلك فعلَ في الخبرِ الذي سَردَ فيهِ قصةَ الطّيرِ الذي كانَ يَقولُ: يا غِياثَ المُستغيثينَ أَغثني، إذْ يبدأُ الخَبرُ بقولِه: "وجدتُ فِي بعضِ الْكُتبِ: حُكيَ أَنَّ رَجُلاً خرجَ فِي وَجهِ شِتاءٍ، فَابْتَاعَ بِأَرْبَعِ مائَةِ دِرْهَمٍ، كَانَ لَا يملكُ غَيرَهَا، فِراخَ الزِّرياب للتِّجَارَة."(٤٩)، وهذا كما أشرتُ سابقاً حسنُ تخليصٍ للنفسِ من تهمةِ الكذبِ أو التدليسِ، وقد غدا هذا الأسلوبُ مع الزَّمن سُنةً متبعةً عند أغلبِ كُتّاب الأدبِ العَجائبيِّ في ذلك العصرِ وما تَبِعه من عصورٍ.

الخاتمة

إنَّ وجودَ العَجائبيِّ في النَّصِّ السَّرديِّ "يتركُ أثراً خاصاً في القَارئِ خَوفاً، أو هولاً، أو مُجرَّدَ حبِّ استطلاعٍ، الشَّيءُ الذي لا تَقدِرُ الأَجناسُ الأُخرى على توليدِهِ، فالعجائبيُّ يَخدمُ السَّردَ ويَحتفظُ بالتَّوتُّر، إذْ إنَّ حُضورَ العَناصرِ العَجائبيَّة يُتيحُ تَنظيماً للحَبكةِ مُكثَّفاً بِصورةٍ خَاصّة."(٥٠)

ويمكنُ القَولُ إنَّ العَجائبيَّةَ في العَصرِ الحَاليِّ ما هي إلّا امتدادٌ للأَشكال الأدبيَّةِ التي كانتْ سائدةً في العُصورِ السّالفةِ كما وضح الباحثُ في خبرِ الرّجُلِ الذي حَلُمَ بالكنزِ في مصر، وكيفَ اقتبسهُ عددٌ من الأدباء قديماً وحديثاً وكثّفوا العجائبيةَ فيه وطوّروها، فعلاقة العجائبية

بالواقِعِ ليستْ عَلاقةً سَطحيَّة، وإنَّما هي على علاقةٍ وطيدةٍ بمشكلاتِه وقضاياه الأكثرِ عُمقًا، فالعجائبيَّةُ لا تَنفصلُ عَن الواقعِ وإنَّما هي حَصيلةُ التَّفاعُلِ الغَنيِّ بينَ الواقعِ والخَيال، وقد تبيَّن أنَّ العلاقةَ بينَهُما علاقةٌ متداخلةٌ تَقومُ على تبادُلِ التَّأثُّرِ والتَّأثيرِ، وهنا تحديداً يكمنُ دورُ الكاتبِ العبقريّ الذي يسيرُ في أدبِه بخطىً دقيقةٍ بينَ هذينِ العَالَمَينِ المُتناقضَينِ ظَاهرًا والمتَداخِلَينِ باطِنًا.

وبعدُ، فقدْ أتقنَ المحسِنُ التنوخيُّ في أخبارِه العجائبيَّةَ على خيرِ وجهٍ دورَ الكاتِبِ العبقريِّ الذي لم يكتفِ فقط بجمْعِ المُستحيلِ بينَ الثُّنائياتِ الضِّديَّةِ الواقعيّة والمتخيَّلة أو المزعومَة لدى رواةِ أخبارِه، بل عَمِلَ أيضاً على الجَمعِ بينَ المُتداخلاتِ الثقافيَّة لدى المُتلقي، فجمعَ الأدبَ والدّينَ والتراثَ العربيَّ في بوتقةٍ واحدة متناغمةٍ جاذبةٍ للقلبِ والذّهن، فهو بهذا الفِعلِ كانَ يؤسِّسُ لنوعٍ جديدٍ من الكِتابةِ التي تَسعى إلى التَّمرُّدِ على الذَّوقِ التَّقليديِّ، والنصيحةِ المباشرةِ الجافّة، والقصِّ المثيرِ لضجرِ القارئِ وهو يهدفُ من خلال ذلك إلى متعةِ القارِئ، وتجاوزِ الواقعِ المَألوفِ عند أبناءِ عصرِه، فما الأخبارُ العجائبيَّةُ في أدبِهِ إلا رغبةٌ دَفينةٌ في نفسِه تدعُوه إلى نبذِ واقِعِه الذي يَعيشُ، إذْ إنَّه من خِلالِ هذه العَجائبيَّةِ يَستطيعُ أنْ يؤسِّسَ واقعًا جديدًا يلتَمِسُ فيهِ عالَمًا وراءَ العالَمِ المُدركِ الذي يَعيشُ.

المراجع العربية

١. القرآن الكريم.
٢. أمين، أحمد. (١٩٦٩م). ظهر الإسلام. ط٥، دار الكتاب العربي، بيروت.
٣. التنوخي، أبو علي بن المحسن بن علي. (١٩٩٥م). (ت ٣٨٤ هـ). نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٨ج (تحقيق عبود الشالجي)، ط٢، دار صادر، بيروت.
٤. التنوخي، أبو علي بن المحسّن بن علي. (١٩٧٨م). (ت: ٣٨٤ هـ). الفرج بعد الشدة،٥م، (تحقيق عبود الشالجي)، دار صادر، بيروت.
٥. التنوخي، أبو علي المحسّن بن علي. (١٩٤٦). (ت ٣٨٤ هـ). المستجاد من فعلات الأجواد، (تحقيق محمد كرد علي)، مطبعة التراقي، دمشق.
٦. تودوروف، تزفيتان. (١٩٩٤م). مدخل إلى الأدب العجائبي، (ترجمة: الصدي بو علام)، ط١، دار شرقيات، الأهرة.
٧. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد. (١٩٨٣م). (ت ٤٢٩هـ). يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ٥م، (تحقيق مفيد محمد قمحية)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد. (١٣٥٧-١٣٥٩). (ت٥٩٧ه). المنتظم في أخبار الملوك والأمم، (ج٥-ج١٠)، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند.
٩. حرب، محمد محمود. (٢٠١١)، السرد في أدب القاضي التنوخي، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية عمان، الأردن.
١٠. حليفي، شعيب. (١٩٩٧م). شعرية الرواية الفانتاستيكية، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، الرباط.
١١. الخطيب البغدادي، أبو بكر بن علي البغدادي، (ت٤٦٣ه)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٤م، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٢. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد. (١٩٧١م). (ت٦٨١ه). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨م، (تحقيق إحسان عباس)، ط١، دار الثقافة، بيروت.
١٣. الخيميائي: رواية ألفها الكاتب البرازيلي باولو كويلو نشرت لأول مرة عام ١٩٨٨م. وصدرتْ مترجمة لأول مرة عن دار الهلال المصرية عام ١٩٩٦م.
١٤. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. (١٣٤٧م، ت ٧٤٨ه) العبر في خبر من غبر، ٤م، (تحقيق أبو هاجر محمد السعيد زغلول)، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٥. شخاترة، خولة خليل. (٢٠٠٤). الخبر عند المحسن التنوخي بين القصّ والتاريخ، دار الورّاق، إربد.

١٦. شعلان، سناء كامل. (٢٠٠٦م). السرد العجائبي والغرائبي في الرواية والقصة القصيرة في الأردن من عام ١٩٧٠ إلى ٢٠٠٢م، ط٢، نادي الجسرة الثقافي، قطر.
١٧. الشاهد، نبيل حمدي. العجائبي في السرد العربي القديم. دار الوراق للنشر والتوزيع، عمان، ط١.
١٨. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك. (٢٠٠٠م). (ت٧٦٤ هـ). الوافي بالوفيات، ٢٩م، (تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى) دار إحياء التراث، بيروت.
١٩. علوش، سعيد. (١٩٨٥م). معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، مطبعة المكتبة الجامعية، الدار البيضاء، المغرب.
٢٠. القرشي، أبو محمد محي الدين عبد القادر بن الوفاء. (١٩٩٣م). (ت٧٧٥ هـ). الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية،٥م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢١. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود. (١٩٥٦م). (ت٦٨٢هـ)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ط٣، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، القاهرة.
٢٢. المثنوي: محمد بن بهاء الدين البلخي، المعروف بجلال الدين الروميّ الصوفيٌّ أحد كبار متصوفة قونية في القرن السابع الهجري، يضم الكتابُ قِصصاً من التاريخ الإسلامي وغيرِه وحكايا الأنبياء والملوك في الأرض.
٢٣. ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي. (١٩٦٨م). (ت٧١١). لسان العرب، ١٥م، ط١، دار صادر، بيروت.
٢٤. يوسف، مي أحمد. (١٩٩٩). نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي، أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويّات، العد الثاني.

الهوامش

١. يوسف، مي أحمد، (١٩٩٩)، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي، أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويّات، العدد الثاني، ص ٩-٥٦.
٢. شخاترة، خولة خليل، (٢٠٠٤)، الخبر عند المحسن التنوخي بين القصّ والتاريخ، دار الورّاق، إربد.
٣. يوسف، مي أحمد، (١٩٩٩)، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي، أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويّات، العدد الثاني، ص ٩-٥٦.
٤. شخاترة، خولة خليل، (٢٠٠٤)، الخبر عند المحسن التنوخي بين القصّ والتاريخ، دار الورّاق، إربد.
٥. حرب، محمد محمود، (٢٠١١)، السرد في أدب القاضي التنوخي، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية عمان، الأردن.
٦. انظر ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، (ت٦٨١هـ). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨م،(تحقيق إحسان عباس)، ط١، دار الثقافة، بيروت،١٩٧١، ج٤، ص١٥٩؛ انظر الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت ٧٤٨هـ، ١٣٤٧م) العبر في خبر من غبر، ٤م، (تحقيق أبو هاجر محمد السعيد زغلول)، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٢، ص١٦٦.
٧. انظر التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج١، ص١٠٨؛ انظر ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، (ت٥٩٧هـ). المنتظم في أخبار الملوك والأمم، (ج٥-ج١٠)، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٣٥٧-١٣٥٩هـ، ج٩، ص٤٢٤٩؛ انظر الخطيب البغدادي، أبو بكر بن علي البغدادي، (ت٤٦٣)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٤م، دار الكتاب العربي، بيروت، ج١٣، ص١٥٧.
٨. انظر ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص٤٢٤٩.
٩. انظر أمين، أحمد، ظهر الإسلام. ط٥، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٩٦٩م) ج١، ص٢٤١.
١٠. انظر الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، (ت ٤٢٩هـ). يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ٥م، (تحقيق مفيد محمد قمحية)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، ج٢، ص٤٠٥.
١١. انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص١٦٠.
١٢. انظر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٣، ص١٥٧. وانظر ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص٤٢٤٩. وانظر ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٠٤. وانظر الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت٧٦٤ هـ). الوافي بالوفيات، ٢٩م، (تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى) دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠، ج٤، ص٤٦. وانظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص١٦٢. وانظر الذهبي، العبر، ج٢، ص١٦٦. وانظر القرشي، أبو محمد محي الدين عبد القادر بن الوفاء، (ت٧٧٥ هـ). الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية،٥م، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣، ج٢، ص١٥١
١٣. انظر ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي، (ت٧١١). لسان العرب، ١٥م، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨. مادة عجب.
١٤. انظر القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، (ت: ٦٨٢هـ)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ط٣، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٥٦، ص٣.
١٥. انظر علوش، سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، مطبعة المكتبة الجامعية، الدار البيضاء،

المغرب، (١٩٨٥م)، ص١٤٦.
١٦. انظر تودوروف، تزفيتان، مدخل إلى الأدب العجائبي، (ترجمة: الصدي بو علام)، ط١، دار شرقيات، الأهرة، (١٩٩٤م)، ص٤٤.
١٧. المصدر نفسه، ص ٦٧، ٦٨.
١٨. انظر شعلان، سناء كامل، السرد العجائبي والغرائبي في الرواية والقصة القصيرة في الأردن من عام ١٩٧٠ إلى ٢٠٠٢م، ط٢، نادي الجسرة الثقافي، قطر، (٢٠٠٦م)، ص٣٢.
١٩. المصدر نفسه، ص٣٢.
٢٠. المصدر نفسه، ص١٠.
٢١. المصدر نفسه، ص١٠.
٢٢. انظر التنوخي، أبو علي بن المحسّن بن علي، (ت: ٣٨٤ هـ). الفرج بعد الشدة،٥م، (تحقيق عبود الشالجي)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨، ج١، ص٩٩- ١٠١.
٢٣. انظر التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج١، ص١٠٠.
٢٤. الشاهد، نبيل حمدي. العجائبي في السرد العربي القديم، دار الوراق للتوزيع والنشر، عمان، ط١، ٢٠١٢. ص٢٥.
٢٥. انظر التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج٣، ص٩٦.
٢٦. المصدر نفسه، ص٩٧.
٢٧. المصدر نفسه، ص٢٣٨- ٢٤٠.
٢٨. المصدر نفسه، ص٢٣٨- ٢٤٠.
٢٩. المصدر نفسه، ص٢٠١.
٣٠. انظر التنوخيّ، الفرج بعد الشدة، ج٤، ص١٣٩- ١٤٥.
٣١. المصدر نفسه، ص١٤٣.
رقأ الدم: سكن وانقطع. انظر اللسان، مادة: رقأ.
٣٢. المَحَجّة: جادّة الطريق، مَفْعَلة من الحجّ القَصْد، والميم زائدة، وجمعها المحاجّ، بتشديد الجيم. انظر اللسان، مادة محج.
٣٣. انظر التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج٤، ص١٧٤- ١٧٦.
٣٤. المصدر نفسه، ج٣، ص٩٩.
٣٥. انظر التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج٤، ص١٣٣- ١٣٤.
٣٦. انظر التنوخي، أبو علي المحسّن بن علي، (ت ٣٨٤ هـ). المستجاد من فعلات الأجواد، (تحقيق محمد كرد علي)، مطبعة التراقي، دمشق، ١٩٤٦، ص٩.
٣٧. انظر الصفحة ٦ من هذا البحث.
٣٨. انظر التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج٣، ص٣٦.
الجام: إناء من فضة، عربي صحيح. انظر اللسان، مادة: جوم.
٣٩. انظر التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج٤، ص١٢٩- ١٣٢؛ وانظر التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج٣، ص١٩٥- ١٩٧.
٤٠. انظر حليفي، شعيب، شعرية الرواية الفانتاستيكية، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، الرباط، (١٩٩٧م)، ص١٣.
٤١. انظر التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج٢، ص٢٦٩.
السِدر: شجر النبق، واحدتها سِدْرة وجمعها سِدرات وسِدِرات. انظر اللسان، مادة: سدر.
٤٢. المثنوي: كتابٌ يقع في ستة أجزاءٍ لمحمد بن بهاء الدين البلخي، المعروف بجلالِ الدين الروميّ الصوفيٌّ أحد كبار متصوفة قونية في القرن السابع الهجري، يضم الكتابُ قِصصاً من التاريخ الإسلامي وغيرِه وحكايا الأنبياء والملوك في الأرض.
٤٣. الخيميائي: رواية ألفها الكاتب البرازيلي باولو كويلو نشرت لأول مرة عام ١٩٨٨م. وصدرتْ مترجمة لأول مرة عن دار الهلال المصرية عام ١٩٩٦م.
٤٤. انظر التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج٢، ص٢٩٨.فيج: فارسي معرب، والجمع فُيوج، وهو الذي يسعى على رجليه. انظر اللسان، مادة: فيج.
٤٥. السميرية: ضرب من السفن. انظر اللسان، مادة: سمر.
٤٦. انظر التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج٤، ص١٢٦.
٤٧. انظر شعلان، سناء كامل، السرد العجائبي والغرائبي في الرواية والقصة القصيرة في الأردن من عام ١٩٧٠ إلى ٢٠٠٢م، ص٥٤.
٤٨. انظر التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج٤، ص١٧٤.
٤٩. انظر التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج٣، ص٩٩.
٥٠. انظر شعلان، سناء كامل، السرد العجائبي والغرائبي في الرواية والقصة القصيرة في الأردن من عام ١٩٧٠ إلى ٢٠٠٢م، ص٣٣.